مدينة نابلس و سكانها
في أعين الرحالة ميشو و الأخوين بوجالا

أ.د. يوسف نكادي
أستاذ التعليم العالي
جامعة وجدة/ المغرب الأقصى

شكلت فلسطين محطة من بين المحطات التي ارتادها الفرنسيون، منذ أقدم العصور، في إطار رحلاتهم إلى الشرق. وقد بلغت تلك الرحلات أوجها خلال القرن التاسع عشر و انخرط فيها، إلى جانب الحجاج و التجار و المبشرين و المكتشفين، عدد من المفكرين. نذكر من بينهم المؤرخ جوزيف- فرانسوا (Joseph-François Michaud) (المتوفى في شتنبر1839) و الأديب فرانسوا- روني شاتوبريان (François-René Chateaubriand) (المتوفى في يوليوز 1848) و المؤرخ باتستان بوجالا (Baptistin Poujalat) (المتوفى سنة 1864) و الشاعر الروائي ألفونس دو لامارتين (Alphonse de Lamartine) (المتوفى في فبراير 1869) و الصحافي المؤرخ جون- جوزيف- فرانسوا بوجالا (Jean-Joseph-François Poujalat) (المتوفى في يناير 1880) و الكاتب الروائي غوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) (المتوفى في مايو 1880).

زار هؤلاء المفكرون عددا من حواضر و قرى فلسطين و دونوا مشاهداتهم و انطباعاتهم عنها و عن سكانها. و تناولوا، و هم يقومون بعملية التدوين، جوانب من تاريخ و جغرافية و اقتصاد تلك الحواضر و القرى. و قد خصوا القدس "أم المدائن" بصفحات مطولة في مؤلفاتهم، بينما لم يخصوا الحواضر و المدائن الأخرى، مثل بيت لحم و الناصرة و رام الله و حيفا و عكا سوى بأحاديث قصيرة تراوحت بين بضع صفحات و بضع فقرات.

و قد قدر لمدينة نابلس أن تحضى بحديث ناهز العشر صفحات في مؤلف جوزيف- فرانسوا ميشو و جون-جوزيف-فرانسوا بوجالا. و كان حظها أوفر نسبيا في مؤلف باتستان بوجالا، حيث تجاوز الحديث عنها عشر صفحات، فضلا عن معلومات أخرى تهمها جاءت متفرقة في متن الكتاب.

قام الأولان برحلة إلى الشرق بين سنتي 1830 و 1831 زارا خلالها مدنا و قرى فلسطينية، من بينها نابلس. و كانا يدونان مشاهدتهما و ملاحظتهما و انطباعاتهما خلال مراحل الرحلة و يصوغانها في شكل رسائل كان يبعثانها إلى أصدقائهما. و عند عودتهما إلى فرنسا قاما بجمع تلك الرسائل و اجتهدا في تنقيحها و عملا على نشرها في مؤلف ضخم من سبع مجلدات تحت عنوان : "مراسلة من الشرق" (Correspondance d'Orient). اما الثالث (و هو أحد إخوة

جون-جوزيف-فرانسوا)، فقد قام هو الآخر برحلة إلى عدة أفاليم في آسيا الصغرى سنة 1836 نزولا عند رغبة ميشو و بوجالا. كان يبعث خلالها برسائل إلى ميشو و بوجالا. و بعد عودته إلى فرنسا نشر تلك الرسائل في كتاب من جزئين. يعرف اليوم "بسفر إلى القسطنطينية" (Voyage à Constantinople) أو "سفر في آسيا الصغرى" (Voyage dans l' Asie Mineure). و يعد تكملة لكتاب "مراسلة من الشرق".

ارتأينا في هذا العرض أن نعتمد على المؤلفين المذكورين لاعتبارين : أولا لأنهما يتضمنان معلومات غزيرة نسبيا و قيمة حول مدينة نابلس و سكانها و ثانيا لأنهما من وضع مؤرخين مختصين ينتمون إلى نفس الحقل المعرفي الذي ننتمي إليه.

سنتعامل مع الكتابين بوصفهما يشكلان مصنفا واجدا. و سنحاول تسليط الضوء على الصورة التي يقدمها الرحالة الثلاث عن مدينة نابلس و عن سكانها. و لتحقيق هذا المسعى سنتناول، بعد التعريف بالمؤرخين الثلاث و بمؤلفيهما و بدواعي رحلتهم إلى الشرق، العناصر الآتية :

1. موقع و وطبوغرافية مدينة نابلس و ظهيرها
2. الوحدات الطبيعية الوارد ذكرها في نص الرحلة
3. مورفولوجية المدينة (المدينة النواة و المدينة المستحدثة)
4. تطور تسمية المدينة
5. نظام حكم المدينة زمن الرحلة
6. أصول سكان مدينة نابلس
7. موقفهم من إدارة ممثلي السلطة العثمانية و إدارة حكام مصر
8. دور النابلسيين بقيادة الشيخ قاسم حكمت في التصدي لتوسعات إبراهيم-باشا
9. تطور أعداد سكان نابلس قبيل و بعد انتفاضة 1834 و زلزال 1837
10. طبائع سكان مدينة نابلس
11. جوانب من أنشطتهم الاقتصادية

وسنختم العرض بتقييم الصورة المقترحة ومقارنتها بالصور التي يقترحها رحالة معاصرون، وإن لم يتحدثوا مباشرة عن مدينة نابلس. كما سنسعى إلى وضع تلك الصورة في سياق النظرة والتمثلات التي كان يروج لها رحالة ومفكرو فرنسا القرن التاسع عشر عن الشرق عامة وعن فلسطين بوجه خاص.